Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

الإعجاز البلاغي للحجج العقلية في سورة البقرة

د. أمينة رقيق

قسم اللغة والأدب العربي كلية الآداب واللغات .
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة-الجزائر

الملخص :

تدخل هذه الدراسة في إطار ربط البلاغة بالاتصال الحجاجي أي بالنظر إلى الحجاج بوصفه خطابة تستهدف استمالة عقل المتلقي والتأثير في سلوكه أي الاقناع، وذلك بدراسة جملة من الحجج العقلية التي وظفها الخطاب القرآني لنفي ما ينفيه، أو إثبات ما يثبته ، كونه رسالة موجهة للبشرية جمعاء، بالتركيز على أهم سمة تطبعه هي الإعجاز البلاغي الذي يتجاوز مفهوم بلاغة التحسين و التقبيح، إلى اعتماد بلاغة تخاطب العقول بما يلائمها من حجج منطقية، بما يحقق أعلى درجات التأثير العقلي والعاطفي، سلاحها في ذلك المزاوجة بين جمال اللغة ودقة العبارة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الحجاج، الإعجاز البلاغي-الحجج العقلية.

Abstract:

This study came in the light of linking the rhetoric with the argumentative communication, i.e. in view of argumentation as a speech intended to attract the mind of the receiver and influence his behavior; which means persuasion, this, by studying a number of rational arguments used by the Qur'anic discourse to deny what it denied or to prove what it proved, as a message sent to all humanity. Focusing on the most important characteristic that prints it; the rhetorical miracle, which goes beyond the concept of eloquence of improvement and ugliness, to the adoption of eloquence that addresses the minds with appropriate logical arguments, to achieve the highest degrees of mental and emotional impact, its weapon in that, the combination between the beauty of language and the precision of the saying

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

مقدمة

جاء القرآن الكريم لينشئ عقيدة لا تموت ويغرس دعوة لا تندثر ويقيم صرحا لايتداعى واستطاع أن يحقق غايته هذه ولازال، وفي هذا السياق يعتبر، " ابن عاشور" غاية القرآن الكبرى هي "إصلاح الأمة بأسرها ." فالخطاب القرآني يخاطب الكافر كما يخاطب المؤمن « فإصلاح كفّارها بدعوتهم إلى الإيمان...وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طرق النجاح وتزكية نفوسهم».[1]

إن الذي يقصده بحديثه هذا هو ما نفهمه نحن الآن من "الإقناع" فيمكن أن يقال إن فن الاقناع البلاغي في القرآن الكريم هو أحد وجوه إعجازه ؛ ذلك ان القرآن يستطيع ببلاغته أن يحول بين النفس وبين مارسخ فيها من معتقدات باطلة دون إكراه ودون تعسف في الرأي أو قسر في الحكم، وهو الذي يحمل هذه النفس بما يثير فيها من غرائز العقل والوجدان على الاتباع العملي بما اقتنعت به بعد رضاها الكامل واستجابتها التامة.

ومنه يعدُّ الحجاج البديل الفعال عن العنف والذي تعول عليه نظرية الحجاج الجديدة عند" بيرلمان" و"تيتيكاه"؛ إذ يرى هذان الباحثان أن السعي لتحقيق نتيجة معيَنة يكون باعتماد إحدى وسيلتين: العنف أو الخطاب المقنِع، وما ينجم عن كل وسيلة يجعل التفرقة سهلة بين حرية المعتقد والإكراه ، وبناء عليه يمكن القول إن الخطاب القرآني خطاب حجاجي بامتياز.

إن القرآن الكريم حين يجادل عن حقائقه لا يعتمد على العقل وحده وينسى حظ الوجدان، بل يوجه خطابه إليهما معا، ومثلما يسوق الحجة العقلية يحرص على توفير المتعة الوجدانية، وبهذا باين أسلوبه في الجدل أساليبَ البشر، فتوفرت فيه البلاغية التي تحقق للنفوس عناصر الإقناع والامتاع.

وعلى الرغم من أن الاحتجاج العقلي الذي ساقه القرآن الكريم لإفحام وإلزام خصومه أسلوب من أساليبه في الاقناع، إلاّ أن الطابع المميز له هو أنه يساق مساقا أدبيا تتفتح له العقول والقلوب.

ومنه يجمع موضوع البحث بين مدخلين: مدخل الإعجاز البلاغي القرآني و مدخل الحجاج الإقناعي، من خلال النظر في الخطاب القرآني موطنا للحجج –العقلية منها بالتحديد–من أجل توطيد الإيمان والتوحيد اقتناعا بأسلوب معجز مختار. و تم اختيار نماذج من الآيات من سورة البقرة ذات الطابع الحجاجي العقلي، التزاما بمحدودية الفسحة المتاحة للبحث، يسبق ذلك بعض التمهيد التنظيري الضروري لسيرورة التدرج المفاهيمي لمجال الدراسة.

1–الإعجاز البلاغي:

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

يعدُّ القرآن الكريمُ بالإجماع معجزة النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم الكبرى، وإن كان قد أُيِّد بمعجزات كثيرةٍ ؛ غير أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة . وقد حمل القرآن دعوة التحدي إلى الناس عامة، وإلى العرب خاصةً وقت نزول القرآن الكريم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سورٍ مثله مفتريات، أو بسورة من مثله، ولكن عجزوا عن ذلك، مع أن اللغة لغتهم والحديث حديثهم والألفاظ هي نفسها التي يتلفظون بها.

وعلى الرغم من تسليم العرب بالعجز في حينه فإن الوقوف على الجهة التي كان فيها الإعجاز القرآني أمراً لم تلتق عنده الآراء، ولم يكن محل اتفاق بين العلماء والباحثين والناظرين في وجوه الإعجاز في كل مكان وزمان، إلا أن المفروغ منه أن أكبر تجليات إعجازه يتمثل في بلاغته وعجيب نظمه و بديع تأليفه على تعدد وجوهه ، من ذكر قصصٍ وحكم وأحكام ووعيد وأخلاق كريمة وغير ذلك.

لقد ارتبطت البلاغة بالقرآن الكريم لأنها سر إعجازه الذي سحر العقول والقلوب معا، وكان الهدف من دراستها هو « إبراز ما في كتاب الله ، من وجوه للجمال التي يمتاز بها، وبيان سر الإعجاز الذي بان به كلام الله وأمتاز به عن كلام البشر سواء من ناحية مقاصده ومعانيه أو من ناحية أساليب تأديتها والعبارة عنها».[2]

إن الوجه البلاغي للاعجاز القرآني شامل للقرآن الكريم بكامله ويتحقق في الجزء المتحدى به وهو أقصر سورة منه ، أما الوجوه الأخرى مثل الإخبار بالغيب والتشريع والعلوم الكونية وغيرها من الوجوه، فلا تتحقق إلا في بعض الآيات منه.

2-الحجاج القرآني:

2-أ/طرق الاحتجاج في الخطاب القرآني:

لقد توفّر في القرآن من المعطيات ما جعله خطابا حجاجيا إقناعيا وما جعل الحجاج يصيب كثيرا من العناصر اللغوية فيه مثل: الكلمات والتراكيب والصور.[3]

ولقد تعارف الباحثون على أن مَن يستقرئ حجج القرآن، يجده قد سلك في إقامتها أربع طرق رئيسة :[4]

الطريقة الأولى : المناظرة والجدل.

الطريقة الثانية : الحوار.

الطريقة الثالثة : القصة.

الطريقة الرابعة : سوق الحجة ابتداء من غير مناظرة ولا حوار ولا قصة.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

وعلى العموم، سيتقصى البحث جملة من النماذج من الحجج العقلية دون الالتزام بهذا التفريع، لأن نوعها سيتراءى من خلال الحديث عن جوانبها البلاغية إذ لا يمكن معرفة دلالاتها وسمتها البلاغية دون معرفة السياق الواردة فيه.

2-ب/ الحجاج البلاغي:

استنادا إلى مجال الدراسة يتم تقسيم الحجاج إلى ثلاثة أنواع هي:

-الحجاج الفلسفي:

يتخذ من الفلسفة بعدا من أبعاده، وآلية من آلياته، فتقاس نجاعته بمعايير خارجية كالقوة والضعف والكفاءة أو عدمها، والنجاح أو الفشل في الإقناع، ويكون هدفه التأثير والتقبل.[5]

- الحجاج التداولي:

هذا الحجاج يركز اهتمامه على الجانب التداولي في الخطاب، إذ أن لفظ التداولية يبعث على استحضار نظرية أفعال الكلام في الخطاب، ورصدها فيه بغرض إقناع المخاطب، بالرغم من اختلاف الأبعاد التداولية التي تتيح توجيه الخطاب الحجاجي والإجابة على التساؤلات والإشكاليات التي تحيط بالعملية التخاطبية والحجاجية.[6]

- الحجاج البلاغي :

البلاغة في هذا النوع هي المجال الذي يستقي منه الحجاج آلياته، من أجل إقناع المتلقي والتأثير فيه، من خلال توظيف الأساليب البلاغية والصور البيانية؛ إذ تعد –أي البلاغة–آلية من آليات الحجاج، وذلك لاعتمادها الاستمالة والتأثير عن طريق الحجاج بالصورة البيانية والأساليب الجمالية، أي إقناع المتلقي عن طريق إشباع فكره ومشاعره معا، حتى يتقبل القضية أو الفعل موضوع الخطاب.[7]« ويعتمد الخطاب في الحجاج على تقنيات مخصوصة لا تختص بمجال من المجالات دون غيره، فهي مطاوعة حسب استعمال المرسل لها، إذ يختار حججه وطريقة بنائها بما يتناسب مع السياق الذي يحف بخطابه»[8] ، ويعمد المرسل إلى توظيف هذه الآليات والأساليب البلاغية بخصائصها وإمكانياتها الاقناعية، فتكون بمثابة قوالب تنظم الحجج، فتعينه على تقديم حججه في الهيكل الذي يتناسب والسياق الذي ترد فيه.

والأساليب البلاغية « قد يتم عزلها عن سياقها البلاغي لتؤدي وظيفة لا جمالية، بل تؤدي وظيفة إقناعية استدلالية، من هنا يتبين أن معظم الأساليب البلاغية تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية ولإنجاز مقاصد حجاجية».[9]

3-الحجج العقلية في القرآن الكريم:

قسم العلماء الدليل في القرآن الكريم إلى نوعين:

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

النوع الأول : الأدلة التكليفية.

وهذه الأدلة تكون دلالتها على الأحكام التكليفية، وذلك كدلالة الأوامر والنواهي على الطلب من المكلف، إن هذه النصوص وأمثالها في القرآن لم تجئ للبرهان، ولم يؤت بها في محل الاستدلال وإقامة الحجج ، بل جيء بها على هيئة خبر يُعْمل بمقتضاه ويأخذه العقل بالتسليم والانقياد.[10]

النوع الثاني : الأدلة البرهانية.

ويقصد بهذا النوع الأدلة التي سيقت لتقرير قضية من القضايا الغيبية على طريقة البرهان العقلي، فيستدل على المطلوب الذي جعل دليلا عليه، وكأنه تعليم للأمة كيف يستدلون على المخالفين، وهو في أول الأمر موضوع لذلك.[11] وتدخل هنا جميع البراهين العقلية وما جرى مجراها .والقرآن مملوء بذكر الأدلة العقلية التي هي آيات الله الدالة على ربوبيته ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته، بل إنك لا تجد كتابا تضمن من البراهين والأدلة العقلية على هذه المطالب مثل ما تضمنه القرآن الكريم، تقيم ُ الحجة على كل منكر أو جاحد أو شاك ، والأمثلة على هذا الضرب من الأدلة كثيرة، سنفرد ما توافر منها في سورة البقرة.

4- الإعجاز البلاغي للحجج العقلية في بعض آيات سورة البقرة :

❖ **(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)** [البقرة: 2]

هذه الآية تمثل بنية حجاجية مبنية على قضية عقلية تقوم على نفي الريب وإثبات أن كتاب الله حق وصدق لا باطل فهو لا كذب كما كان يدعي المشركون.

في قوله تعالى: **(ذَلِكَ الْكِتَابُ)** استخدام اسم الإشارة "ذلك" للبعيد يوحي بعلو شأنه وبعد مرتبته في الكمال.[12]

استخدم في الآية المجاز العقلي في قوله: **(هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)**، حيث أسندت الهداية للقرآن ، والهادي الحقيقي هو الله عز وجل.[13]

❖ **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)** . [البقرة: 21-22]

في أكثر آيات القرآن الكريم، نجد أن السموات مقدّمة على الأرض وقد تُقدّم الأرض على السماء خلافًا لهذا الأصل تبعًا لاقتضاء السياق كما في الآية: 22. فلعله بدأ بذكر الأرض لأنها أقرب إلى النظر والتأمل وفيها المستقر والمعاش والفراش، وقد وردت هذه الآية في سياق البرهان القطعي على وجوب عبادة الله وحده وشكره على نعمه.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

قال تعالى: (**اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ**)، « ولم يقل إلهكم، والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها، فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له ».[14]

من لطائف التركيب القرآني في هذا الموضع تنكير **(مَاءً)** و **(رِزْقاً)** وجعل في قوله:(**مِنَ الثَّمَرَاتِ**) « معنى البعضية فكأنه قيل : وأنزلنا من السماء بعض الماء، فأخرجنا به بعض الثمرات ، ليكون بعض رزقكم. وهذا هو المطابق لصحة المعنى، لأنه لم ينزل من السماء الماء كله ، ولا أخرج بالمطر جميع الثمرات، ولا جعل الرزق كله في الثمرات. ويجوز أن تكون للبيان كقولك : أنفقت من الدراهم ألفا ».[15]

- **(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ).**[البقرة: 26]

سيقت هذه الآية لبيان ما استنكره السفهاء وأهل العناد واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروبا بها المثل، وليست بموضع الاستنكار وإنما بالتمثيل[16]، ولقد ذكر الله عز وجل الدواب في مواضع كثيرة، ضمن آيات الخلق العظيمة، يقول "ابن القيم": « ولا تزدرينّ العبرة بالشيء الحقير (...) فإن المعنى النفيس يُقتبس من الشيء الحقير، والازدراء بذلك ميراث من الذين استنكرت عقولهم ضرب الله تعالى في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت، والكلب والحمار ...».[17]

في قوله تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي**) مجاز مرسل من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم بمعنى أنه سبحانه عبر بالحياء عن الترك لأن الترك من ثمرات الحياء، ومن استحيا من فعل الشيء تركه.[18]

- **وإِذَا قُلتُم يا موسَى لَن نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِج لنَا ممَّا تُنبِتُ الأرضُ مِن بَقْلِها وقِثَّائهَا و فومِها و عَدسِها و بَصلِها قالَ أتستَبْدلونَ الذي هُوَ أدْنى بالَّذي هُوَ خيرُ اهبِطوا مصْرا فإنّ لكُم ما سألْتُمْ و ضُربتْ عليهِم الذِّلّةُ و المسْكنةُ وباءُوا بِغَضَبٍ مِن اللهِ ذَلِك بِأنَّهُم كانُوا يَكفُرُونَ بآيات اللهِ ويقتُلُونَ النَّبيينَ بغيرِ الحقِّ ذَلِك بِمَا عَصَوْا و كانُوا يَعْتَدُونَ**) [البقرة: 61]

كثرت الإشارة إلى أن الله ينصر أنبياءه ورسله، ويؤيدهم ويظهرهم على عدوهم بأنواع الظهور[19] مما لا يترك مجالا للاعتراض بأن في الأنبياء من قُتل، كما في قوله تعالى:(**ذَلِك بِأنَّهُم كانُوا يَكفُرُونَ بآيات اللهِ ويقتُلُونَ النَّبيينَ بغيرِ الحقِّ**)، فإن حال هؤلاء كحال من يُقتل من

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

المؤمنين شهيدا في الجهاد (...) وهذا النوع من الدلالة الشرعية هو في حقيقته قياس عقلي تمثيلي؛ لأنه مبني على اعتبار الشيء بنظيره، والتسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين.[20]

من الناحية البلاغية قوله تعالى:(**ممَّا تُنبِتُ الأرضُ)** يتضمن مجازا عقليا قوامه العلاقة السببية، فالمنبت الحقيقي هو الله تعالى و الأرض سبب للنبات أسند إليها. وأما قوله: (**و ضُربتْ عليهِم الذِّلّةُ و المسْكنةُ**) فكناية عن إحاطتها بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه، وكان للبيان أثر في توضيح المعنى وترسيخه، ومغالبة عناد الكفار وجدالهم الدائم.

- **(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).** [البقرة: 74]

وصف القلوب بالقسوة والغلظ (على سبيل الاستعارة التصريحية) مثل لنبوّها عن الاعتبار وأنّ المواعظ لا تؤثر فيها (...) إن من عرف حالها شبهها بالحجارة (نوع التشبيه هنا تشبيه مرسل)، أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلا، أو قال : هي أقسى من الحجارة. فإن قلت : لم قيل : أشد قسوة ، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب ؟ قلت : لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة. ووجه آخر ، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد وصف القسوة بالشدة ، كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشدّ قسوة.[21]

- **(ولمَّا جاءهُم كتابٌ مِنْ عِندِ اللهِ مصدقٌ لِمَا مَعَهمْ وكانُوا من قبلُ يَسْتفتِحونَ على الذينَ كَفروا فَلَمَّا جاءَهُم ما عَرَفُوا كَفَروا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ علَى الكافِرينَ).** [البقرة: 89]

تدور الآية في محور انتفاء أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن من أحد من البشر بما يحويه من دلائل وشواهد كثيرة.[22]

في تفسيره لهذه الآية يبين أبو السعود(ت 982 هـ) سبب إظهار لفظ (الكافرين)، مع أن الأصل إضماره بأن يقال: فلعنة الله عليهم . فلماذا عدل عن ذلك إلى ما ذكر من الإظهار؟ يقول: « ووضع المظهر موضع المضمر للإشعار بأن حلول اللعنة بسبب كفرهم » [23]، ومقصوده أن الإظهار هنا قام مقام التعليل لحلول اللعنة بهم، ولبيان أن ما التصق بهم منها إنما هو بكفرهم. ومثل هذا ذكره في مواضع عديدة في السورة.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

❖ (**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**). [البقرة: 133]

العملية الحجاجية قائمة على الاستفهام الذي هو استفهام انكاري، وذلك في الجزء الأول من الآية أما الجزء الثاني، فالقضية الحجاجية فيه تقوم على التوحيد أي على الحصر.

في قوله تعالى:(**نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ**) أسلوب الإطراد؛ فنّ من فنون البلاغة وهو أن يطرد للمتكلم أسماء الآباء مرتبة على حكم ترتيبها في الميلاد فقد تجاوز جدهم الأدنى إلى جدهم الأعلى لكونه المبتدأ بالملة المتبعة وفيه أيضا فنّ المساواة لأن ألفاظ هذا المعنى لا فضل فيها عنه ولا تقصير، وفيه أيضا حسن البيان لأن فيها بيانا عن الدين بأحسن بيان لا يتوقف أحد في فهمه، وفيها أيضا فن الاحتراس لأنه لو وقف عند آبائك لاختلت صحة المعنى لأن مطلق الآباء يتناول من الأب الأدنى إلى آدم وفي آباء يعقوب عليه السلام من لا يجب اتباع ملته فاحترس بذكر البدل عما يرد على المبدل منه لو كان وقع الاختصار عليه فتأمل واعجب.[24]

❖ (**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** .)[البقرة: 164]

إذا نظرنا إلى هذا العالم وجدناه بجميع أجزائه مقهورا مسيرا مدبّرا مسخرا، تتجلى فيه شواهد القدرة لمخضعه ومذله، بما لا يدع مجالا للشك في وجود مدبر يدبره، وقدير يمسك بمقاليده،[25] أي بالتسخير المطلق للكائنات، و الآية أعلاه جاءت في إطار هذه الدلالة.

يقول "الزمخشري" (ت 538هـ) في تفسير الآية: « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ واعتقابهما لأنّ كلّ واحد منهما يعقب الآخر ، كقوله : (جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً) بِما يَنْفَعُ النَّاسَ بالذي ينفعهم مما يحمل فيها أو ينفع الناس. فإن قلت : قوله وَبَثَّ فِيها عطف على أنزل أم أحيا؟ قلت : الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة، لأنّ قوله : **(فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ)** عطف على أنزل ، فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد ، فكأنه قيل : وما أنزل في الأرض من ماء وبثّ فيها من كل دابة ».[26]

❖ (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**). [البقرة: 243]

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

تثبت هذه الآية أن الإحياء بعد الموت واقع فعلا، وهذا كاف للدلالة على قدرته؛ لأن من أحيا نفسا واحدة بعد موتها قادر على إحياء جميع النفوس.

قال " أبو حيان" : تضمنت الآية الكريمة من ضروب البلاغة وصنوف البيان الكثير منها:[27]

في قوله : (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ**) استفهام غرضه التعجب.

و في قوله: (**مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ**) الحذف والتقدير: (أنهم ماتوا ثم أحياهم) والطباق بين (موتوا) و(أحياهم)، وهذا ما يطلق عليه الإيجاز بالحذف فقد حذف (فماتوا) للاستغناء عن ذكره للتنبيه على أن كل شيء لا يتخلف عن إرادته تعالى.

❖ (**اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**). [البقرة: 255]

يذكر "ابن تيمية" أن النفي في حق الله تعالى ليس مقصودا لذات النفي، إذ النفي المحض عدمُ لا محمدة فيه، وإنما المقصود بالنفي إثبات كمال ضد الوصف المنفي، فهو نفي متضمن للإثبات، وعلى هذا النحو تقوم الدلالة العامة على التنزيه العام لله تعالى، وفي هذه الآية لا يمدح الرب نفسه، بل يصفها بالنفي المتضمن معنى ثبوتيا.[28]

قد يكون التقديم بذكر الكلمة من أجل بيان سوء المصير وتحقيره والتنفير منه، وذلك كما في قوله تعالى: (**يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ**) [سورة هود: 105-106]، فتصدير الآية بكلمة (**يَوْمَ**) مع تنكيرها أبلغ في الروع والفزع، وفي نفي الكلام عن النفس على عمومها - كما أفاد التنكير أيضًا- في سياق أسلوب القصر بالنفي والاستثناء والتعبير بالمضارع (**يَأْتِ**) لاستحضار الصورة مزيد من إضفاء هذا المشهد بجلاله ومهابته.

ثم بعد هذا الحشد البلاغي يأتي التقسيم والتفصيل (**فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ**) مع تقديم للشقي للسبب السالف الذكر. وهذا أيضًا فيه إجمال، أتى بعده التفصيل الآخر الذي تناول الشقي بتكرار ذكره وبيان مكانه (**فَفِي النَّارِ**) لتكون وعاء لهم، يعيشون فيها حياتهم بالزفير والشهيق، وهو ما عرفوه في حياتهم الدنيا ومارسوه، ليستحضروا بذلك المشهد الحياة الحقيقية داخل النار -عياذًا بالله- وقد تأتي الكلمة مقدمة لبيان الترتيب والسبق: فمن حيث السبق في الزمان: قوله تعالى: (**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**) [سورة آل عمران:

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

68]، ومن حيث السبق في الإيجاد: قوله تعالى: **(لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ)** [سورة البقرة: 255] لأن العادة في البشر أن تأخذ العبد السنة قبل النوم، فجاءت العبارة على حسب هذه العادة.[29] ذكره "السهيلي" وذكر معها وجهًا آخر، وهو أنها وردت في معرض التمدح والثناء وافتقاد السنة أبلغ في التنزيه فبدأ بالأفضل، لأنه إذا استحالت عليه السنة فأحرى أن يستحيل عليه النوم. [30]

الخاتمة:

إن التأمل في الأمثلة السابقة من سورة البقرة، وفي كل أدلة القرآن يبين لنا أن الله تعالى يبتعد عن طرق المنطق البشرية التي تعتمد ترتيب المقدمات وتعقيد المصطلحات، لكنه على عكس ذلك سلك طريق العمق في المعنى مع وضوح التعبير، والتركيز على التصوير الذي يخاطب الضمير و يؤدي إلى الاقتناع، فكان أسلوبه معجزا يتماشى مع كل المقامات، متسما بخصائص الإعجاز البياني المتمثلة في دقة الألفاظ، و روعة المعاني، وجاذبية الإيقاع القرآني، دون أن ننسى جمال الصور، و سمو النظم والتأليف، بما لا يدع مجالا للشك في أن الله جل وعلا يخاطب كل العقول وكل القلوب.

الهوامش:

[1] ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ج1، ص 81.

[2] بن عيسى باطاهر أساليب الاقناع في القرآن الكريم، دار الضياء للنشر والتوزيع عمان، الأردن، ط1، 2006، ص 37-38.

[3] عبد الله صولة، الحجاج : أطره ومنطلقاته من خلال" مصنّف في الحجاج– الخطابة الجديدة "البرلمان وتيتيكاه . ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو على اليوم، إشراف حمّادي صمود، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس،1998 .
ص43 -44.

[4] ينظر: مجاهد محمود أحمد ناصر، منهج القرآن الكريم في إقامة الدليل والحجة، أطروحة غير منشورة لنيل درجة الماجستير في أصول الدين بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس ، فلسطين، 2003، ص 160– 175.

[5] المرجع نفسه ، ص نفسها.

[6] المرجع نفسه، ص112 .

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

[7] هاجر مدقن، آليات تشكل الخطاب الحجاجي بين نظرية البيان ونظرية البرهان، مجلة الأثر، الجزائر، ع5، 2005، ص 113 .

[8] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب– مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004، ص 476 .

[9] صابر الحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للطباعة والنشر، دمشق، سورية، ط1،2008، ص 50.

[10] المرجع نفسه، ص 119.

[11] الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت 790 -هـ) ، الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، ط 2 ، ص 52.

[12] محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص 16.

[13] المرجع نفسه، ص نفسها.

[14] ابن القيم محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، (د ت)، ج4، ص 132.

[15] الزمخشرى، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت 538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، دار الكتاب العربي . بيروت، 1407هـ، الكشاف، ج1، ص 94.

[16] المصدر نفسه، ج1، ص111.

[17] ابن القيم محمد بن أبي بكر، مفتاح دار السعادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (د ت)، ج 1، ص 244.

[18] محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ص 20.

[19] ينظر: سعود بن عبد العزيز بن محمد العريفي، الأدلة العقلية النقلية على أصول الإعتقاد، دار عالم الفوائد، مكة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1419هـ، ص 494–495.

[20] المرجع نفسه، ص 496.

[21] الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 155.

[22] ينظر تفصيل ذلك: سعود بن عبد العزيز بن محمد العريفي، الأدلة العقلية النقلية على أصول الإعتقاد ، ص 548–552.

[23] أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ت)، (د ط)، ج1، ص 129.

[24] مريم العيسى، الشبكة العالمية للمعلومات، موقع القريات الإسلامي، الصفحة:
http://www.guryat.com/vb/showthread.php?p=1902561

[25] سعود بن عبد العزيز بن محمد العريفي، الأدلة العقلية النقلية على أصول الإعتقاد، ص 238.

[26] الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 210.

[27] محمد حسين سلامة، الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ص 49.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

[28] سعود بن عبد العزيز بن محمد العريفي، الأدلة العقلية النقلية على أصول الإعتقاد، ص 377–378. وينظر: هامش الصفحة 378.

[29] محمد السيد عبد الرزاق موسى، الإعجاز البلاغي في التقديم والتأخير، الشبكة العالمية للمعلومات، موقع التفسير، الصفحة:

https://www.tafsir.net/article/4931

[30] الزركشي بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث ، القاهرة، (د ت)، ج3، ص240.